الكتابة المقدسة "الهيروغليفية"

إسراء محمد عبد ربه
عضو هيئة التحرير
كاتبة وباحثة - جمهورية مصر العربية
e-m83@hotmail.com

لم تكن حضارة قدماء المصريين فلتة حضارية في عمر الزمن. لأن حضارتهم كانت منفردة بسماتها الحضارية وإنجازاتها الضخمة وأصالتها. وهذا ما أضفي عليها مصداقية الأصالة بين كل الحضارات. مما جعلها أم حضارات الدنيا بلا منازع. وهذه الحضارة أكثر مكوثا وانبهارا وشهرة بين حضارات الأقدمين.

فلقد قامت حضارة قدماء المصريين The Ancient Egyptians Civilization بطول نهر النيل بشمال شرق أفريقيا منذ سنة ٥٠٠٠ ق.م. إلي سنة ٣٠ ق.م. . وهي أطول حضارة استمرارية بالعالم القديم ، ويقصد بالحضارة المصرية القديمة من الناحية الجغرافية تلك الحضارة التي نبعت بالوادي ودلتا النيل حيث كان يعيش المصريون القدماء. ومن الناحية الثقافية تشير كلمة الحضارة للغتهم وعباداتهم وعاداتهم وتنظيمهم لحياتهم وإدارة شئونهم الحياتية والإدارية ومفهومهم للطبيعة من حولهم وتعاملهم مع الشعوب المجاورة.

ولقد عني المصري القديم بتسجيل كل شيء كتابة من أصغر حدث إلي أعظم ما يمر به ، بداية من طريقة معيشته مروراً بمشاكله والأفكار التي تشغله.كما دون بعض النصوص الأدبية لكنها لم تصل إلينا كاملة أما النصوص الدينية التي كانت منتشرة في المقابر ، فهي أكمل شيء وصل إلينا. وبسبب ذلك اهتم المصري بالكتابة اهتماما شديداً وعمل على تطويرها لتناسب احتياجاته وظروفه. ومرت الكتابة بأطوار رئيسية خمسة هي:

١- الطور الصورى - عندما كانت ترسم المادة عينا فإذا أراد إنسان أن يرسل رسالة يقول فيها انه ذاهب إلى صيد السمك فانه يرسم صورة رجل بيده قصبة في رأسها شخص متجه نحو بحيرة سمك.

٢- الطور الرمزي - وهو الطور الذي استنبط فيه الإنسان صوراً ترمز إلى المعنى فمثلا صورة الشمس للتعبير عن الضياء.

٣- الطور المقطعي - وهو بداية الكتابة بالفعل حيث أصبحت الصورة لا علاقة لها بهجاء الكلمة كما في الكتابة المصرية والبابلية وهي الصورة وأصواتها - مثلا إذا أراد أن يكتب كلمة تبدأ بالمقطع يد كما في يهس أو يدخر فانه يرسم صورة يد ويعتبرها مقطع هجائى لا يراد بها الكف نفسه.

٤- الطور الصوتى وفيه لجأ الكاتب إلى استخدام الصورة للتعبير عن الحرف الأول وكرمز للهجاء الأول من اسم الصورة أي أن صورة الكلب ترمز إلى حرف الكاف وصورة الغزال ترمز إلى حرف الغين على نحو ما يقرأه الصغار في دروس القراءة.

٥- الطور الهجائى - وذلك عندما اشتدت حاجة البشرية إلى التقدم في الكتابة تم اختراع العلامات وذلك في حدود ٣٢٠٠ سنة قبل الميلاد حيث نشأت الكتابة الهيروغليفية في مصر والمسمارية في العراق.

وتعتبر اللغة المصرية القديمة من أقدم كتابات البشر المعروفة ، فقد نشأت نشأة محلية أصيلة واستمدت علاماتها الهيروغليفية من الحيوانات والنباتات وبعض الأواني والأدوات المستخدمة منذ العصر الأدنى للحضارات النحاسية الحجرية ، مما يدل على أنها نتاج للحضارة المصرية التي نشأة على ضفاف النيل دون غيرها ،وهذه الكتابة وصلت في ثلاث صور:

الأولى: الهيروغليفية وهى مدونة على الأنصاب والعمائر والثانية :الهيراطيقية وهى كتابة مختصرة استخدمت في غالبية النصوص الأدبية والإدارية والقانونية والثالثة : وهى الديموطيقية وهى اختصار للهيراطيقية والتطور الذي طرا على علاماتها بلغ حد يصعب معه التعرف على النماذج الهيروغليفية الأصلية واستخدمت في تدوين الوثائق القانونية الهامة.

ولقد عرفت اللغة المصرية القديمة من نصوص تغطي فترة نحو أربعة آلاف عام ؛ من حوالي ٣٠٠٠ ق.م ، وحتى أواخر الألفية الميلادية الأولى: عندما حلت اللغة العربية محلها ، كلغة تحدُّث.

الكتابة الهيروغليفية

طالما اختلف العلماء حول الأسبقية التاريخية للكتابة الهيروغليفية والمسمارية ، وطالما اتفق الكثير منهم على النشأة الزمنية الواحدة لهما.. لكن الاكتشاف الأخير الذي قام به الدكتور الألماني درايز النائب في المعهد الاثري الالماني بالقاهرة والذي تمثل في العثور على نصوص تعتبر أصل الكتابة الهيروغليفية يؤكد على أن الهيروغليفية هي أقدم الكتابات في العالم ذلك لان النصوص التي تم اكتشافها تم استخدامها قبل الهيروغليفية بعدة قرون..

ويؤكد الباحثون وعلماء المصريات أن الهيروغليفية هي أصل لغات العالم كله ماعدا أبجديات شرق أسيا ، حيث انتقلت الهيروغليفية إلى الفينيقيين والآراميين والأنباط عبر سيناء ومن خلال الأبجدية السينائية التي قام عمال مناجم الفيروز بتطويرها وتبسيطها عن الهيروغليفية ويقول عالم المصريات "سير آلان جاردنر" إن كتابة اللغة المصرية القديمة ظلت قائمة على أساس الصورة في كافة حقب التاريخ المصرى القديم.

كلمة هيروغليفية تعني "نقش مقدس" (من الإغريقية ἱερογλύφος) فقد أشتقت كلمة (هيروغليفي) من الكلمتين اليونانيتين (هيروس) (Hieros) و (جليفوس) (Glyphos) وتعنيان الكتابة المقدسة.

وتعتبر الهيروغليفية شكل من أشكال الكتابة التي تستخدم فيها الرموز التصويرية ؛ لتمثل أفكاراً وأصواتاً معينة ، وتدل الهيروغليفية- في الأعم الأغلب- على الكتابة المستخدمة في مصر القديمة لتسجيل اللغة المصرية. وهي أولى الخطوط التي كتب بها المصري القديم لغته ، وأخذت الهيروغليفية صورها من الصور الشائعة في البيئة المصرية. وكانت تضم الأعداد والأسماء وبعض السلع.

وتمثل كل علامة هيروغليفية شيئا واقعيا له وجود فعلي في الحياة اليومية المصرية القديمة: مثل النباتات وأجزاء الجسد والأشكال الهندسية والطيور. وقد تستخدم تلك العلامات لكتابة الكلمة ، أو الشكل (فتسمى إيديوجرام) أو لكي تعطي نطق الكلمة ، أو الصوت (فتسمى فونوجرام).

وكانت تستخدم الهيروغليفية للكتابة على جدران الأماكن المقدسة مثل المعابد والمقابر ، حيث تعني النصوص الهيروغليفية بكافة الأمور التي يراد لها أن تبقى مكتوبة إلى الأبد. كما أن الكتابة المنقوشة كانت تتم على الأحجار بأسلوبي النقش البارز أو الغائر على الجدران الثابتة وعلى الآثار المنقولة مثل التماثيل واللوحات والصلايات ، فكانت تعد في آن واحد تسجيلا و فنا زخرفيا جميلا.

وضمت الكتابة الهيروغليفية في آخر الأمر حوالي ٧٠٠ رمز.

ولتلك الرموز خاصية الأناقة والوضوح اللذان يعتبران نموذجاً للفن المصري القديم. وتتكون الكتابة الهيروغليفية من مجموعة من النقوش المستمدة من الحياة اليومية فهي كتابة تصويرية بالإضافة لوجود حروف أبجدية وإن كانت أكثر تعقيدا من الأبجدية المعروفة الآن في اللغات المنتشرة فالأبجدية في الهيروغليفية تنقسم لثلاثة مجموعات..

- المجموعة الأولى: هي الرموز الأحادي ، أي الحروف أحادية الصوت مثل الحروف المعتادة اليوم.
- المجموعة الثانية: الرموز الثنائية الصوت ، وهي رمز أو نقش واحد ولكن ينطق بحرفين معا.
- المجموعة الثالثة: الرموز ثلاثية الصوت ، وهي نقش أو رمز واحد ولكن يعني ثلاثة.

وذلك بالإضافة لمجموعة من العلامات الأخرى والتي لا تنطق نهائيا وإنما هي من أجل أغراض نحوية مثل تحديد المثنى والجمع والمذكر والمؤنث وبعض الرموز المؤكدة للمعنى والتي تعرف بالمخصصات. فالكتابة المصرية تحمل علامات تصويرية واخرى صوتية على غرار الحروف الهجائية :

١ــ العلامات الصوتية وكل علامة تمثل صوتا واحدا ولا يوجد تمثيل لمعظم الحروف اللينة.

٢ــ العلامات المقطعية وتمثل اثنين أو ثلاث حروف ساكنة وهى كثيرة تبلغ عدة مئات يلحق بها دائما علامة أو اثنين أو ثلاث هجائية للتعزيز وتسهيل القراءة.

٣ــ علامات تصويرية تصور كلمات وذلك باستخدام صور الأشياء تتبعها علامة قائمة وذلك للدلالة على أن الكلمة اكتملت في علامة واحدة وتفسيرها التفسير الصحيح.

٤ــ علامات تحديدية وهى عبارة عن صورة شيء يساعد القارئ على فهم المعنى للدلالة على أن معنى هذه الكلمة يمكن التعبير عنها بشكل تصويري ولكن ليس مباشر وذلك عكس العلامات التصويرية.

وكانت الهيروغليفية تكتب من اليمين إلي اليسار أو العكس أحياناً أو من أعلى إلي أسفل ويمكن تمييز طريقة الكتابة من خلال أشكال الإنسان والحيوان والتي تتجه بوجهها ناحية بداية السطر ، أما الهيراطيقية والديموطيقية كانتا تكتبان من اليمين إلي اليسار دائماً. ويمكن أن يقرأ النص الهيروغليفي في اتجاهين مختلفين ، إما في أسطر رأسية أو أفقية ؛ من اليمين إلى اليسار أو العكس ، خاصة عندما يسهم الأخير في تحقيق التماثل مع نص آخر ؛ فيُقرأ الاثنان باتجاه المحور الأوسط للنُّصب أو الأثر: كما هو الحال مع الباب الوهمي للمدعو

"إيكا". ولا تتوفر هذه الخصائص أبدا في الكتابة الهيراطيقية والديموطيقية للنصوص. وكانت الهيروغليفية المختصرة والجارية (المتصلة) قليلا تكتب بالحبر ، وفي العادة من اليمين إلى اليسار ، مثلا: "كتاب أمديوات" و"كتاب الموتى". وتوجد آخر النصوص التي كتبت بالهيروغليفية بجزيرة فيلا ، وترجع إلى القرن الرابع الميلادي.

أما بالنسبة إلى قواعدها فتتميز بان موضع كل كلمة من كلماتها له ترتيبه الصارم الذي لا يحيد عنه فتتعاقب الكلمات على النحو التالي (الفعل فالفاعل ثم المفعول المباشر واخيرا المفاعيل غير المباشرة) وحالات الإعراب كما عرفتها اليونانية واللاتينية لا وجود لها في المصرية إذ أنها تنفرد بمشكلة خاصة بها وهى افتقارها إلى أدوات العطف والوصل مما يؤدى إلى صعوبة في تحديد الرباط الذي يربط الجملة بما يسبقها او يليها. وعندما أصبحت الكتابة أكثر شيوعاً ، نشأت الحاجة لمادة أفضل من الحجر ، من حيث سهولة الكتابة عليها ، وحفظها ، ونقلها ، ولهذا الغرض اخترع المصريون ورق البردي ، حيث كان النساخون يكتبون على ورق البردي بأقلام مصنوعة من قصب حاد ، كما كانت هناك أقلام ذات رأس معدني ، واستخدم السّخام المخلوط بالماء حبراً. والطريقة التي استخدمت لصنع ورق البردي من سيقانه هي:

١. تقطع سيقان البردي الطويلة إلي أجزاء أصغر طول ٣٠ سم ثم ينزع منها القشر.

٢. يقطع اللب الناتج طولياً إلي شرائح رقيقة ترص متجاورة.

٣. ترص فوق الطبقة السفلية طبقة أخرى من الشرائح بنفس الطريقة حيث تكون متعامدة عليها.

٤. تكبس الطبقتان معاً أو تقريان حتى تلتحما.

ولم يستخدم المصري القديم أي مواد لاصقة سوى العصارة الناتجة من عملية الضرب أو الكبس وهي عصارة طبيعية تحتوي على النشا. كما استخدم المصري مواد كتابية أخرى غير الورق منها رقائق الحجر الجيري الأبيض وكسر الأواني الفخارية واستخدموا أيضاً ألواح الخشب بعد كسوها بالجص. ومثل هذه الأدوات كانت مخصصة لأغراض مؤقتة مثل التمارين المدرسية أو المسودات أو المعاملات الغابرة أو الخطابات أو سجل حضور العاملين. بالإضافة إلى استخدامهم أيضاً الجلد المكسو وفي العصر المتأخر استخدم في التدوين العاج والطين والكتان وحتى البرونز.

و قد كانت لوحة الكاتب الحجرية أبعادها من ٢٠- ٤٣ سم طول و٥-٨ سم عرض و ٥١٠ سمك ، وعند إحدى حافات اللوحة يوجد تجويفان أو أكثر لوضع الألوان حيث يوضع اللون الأحمر في التجويف الأول واللون الأسود في التجويف الثاني وأي لون آخر في أي تجويف آخر أما الألوان فكانت على صورة أقراص جافة ، اللون الأسود كان مصدره الكاربون واللون الأحمر مصدره منطقة المغارة الحمراء وكانوا يعدون أقراص الألوان عن طريق هي خلط الصبغة بمحلول صمغي مخفف فيتخثر المداد عند الجفاف. أما إذا أراد إذابة المداد مرة أخرى يكفيه غمس الفرشاة في الماء و تمريرها فوق سطح القرص (مثل الألوان المائية). وكانت الفرشاة تصنع من سيقان البوص بقطع طولها من ١٥- ٢٥ سم ويشطف طرفها شطفاً مائلاً ثم يهرس السن بفصل الألياف عن بعضها وأحياناً كانت أقلام البوص تستخدم مثل الريشة ، ويتم ذلك عن طريق شق السن من الوسط. بدلا من هرسه بعد الشطف.

فك رموز الكتابة الهيروغليفية

تعود المحاولات الأولى لفك طلاسم الكتابة الهيروغليفية إلى الإغريق. وقد ساد الاعتقاد لديهم أن الرموز الهيروغليفية هي رموز صورية من كتابات الإغريق ، وعن هذا الموضوع وصلتنا مخطوطة واحدة هي "الهيروغليفية" لمؤلفها هورابولون Hieroglyphica of Horapollon.

ففي أوروبا خلال العصور الوسطى لم يكن هنالك اهتمام بالهيروغليفية إلا أنه عام ١٤٢٢ وصلت مخطوطة هورابولون إلى البندقية مما أثار الاهتمام بها حتى أن بعض فناني عصر النهضة قاموا برسم رموز متخيلة بناء لأوصاف هورابولون واستعملوها في رسومهم كعناصر فنية. وقد قامت عدة محاولات لكشف طلاسم الهيروغليفيه قبل اكتشاف حجر رشيد في العصر الحديث ، منها محاولات الأب كرشر اليسوعى الذي عرف أن القبطية ما هى إلا لهجة أو لغة منحدرة من المصرية القديمة.

وبعد أن أسدل التاريخ الستار عن الحضارة المصرية القديمة ونسي العالم اللغة الهيروغليفية وكل ما يتعلق بقراءتها وكتابتها حدث أعظم كشف في علم المصريات في أغسطس سنة ١٧٩٩ (وذلك أثناء حفر الأساسات لتقوية قلعة سميت بعد ذلك بقلعة جوليان البريطانية في رشيد) عثر أحد العسكريين البريطانيين ويدعى بيير فرانسوا كسافييه بوشار (١٧٧٢-١٨٣٢) على الحجر الذي نسميه الآن حجر رشيد وعندما عرض هذا الحجر على المتخصصين في بريطانيا أدركوا أهميته حيث وجدوا فيه نصاً هيروغليفياً تم ترجمة يونانية يمكن قراءتها.

وقد احتوى هذا اللوح الحجري ، على نقش مكتوب بثلاثة خطوط: الخط الهيروغليفي المصري ، والخط الديموطي المصري ، والخط الإغريقي. ولمدة ٢٠ عاماً من وصول الحجر لبريطانيا عكف الدارسون في محاولة لفك الرموز. و بالفعل حدث أول نجاح عام ١٨٢٠م على يد أحد الدبلوماسيين السويديين يسمى" توماس اكربال " الذي تمكن من التعرف على عدد من الأسماء مثل : بطليموس وذلك بمقارنة النص الاغريقي بالنص الديموطيقي ، وبقراءة الجزء الإغريقي في الحجر ، عرف أن النص احتوى على مرسوم صادر في عام ١٩٦ ق.م تشريفاً للملك بطليموس الخامس ومسجل عليه محضر تنصيب الكهنة الملك بطليموس الخامس والاعتراف به ملكا على البلاد ، وقد قام الكهنة في مدينة منف بتسجيل هذه المناسبة الهامة.

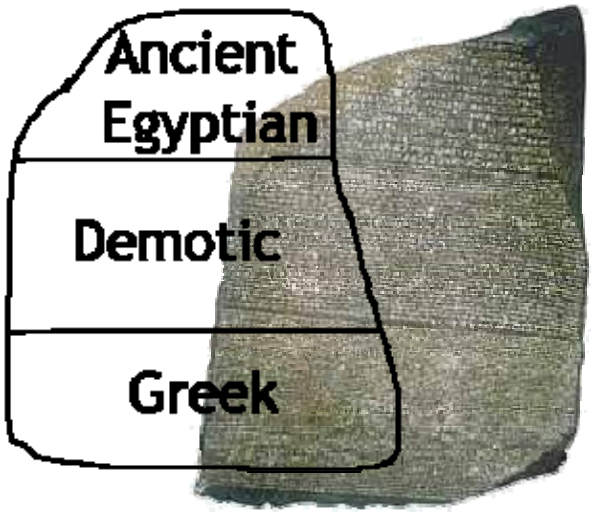

وبعده في ١٨١٤م ، اكتشف توماس يونج ، وهو طبيب وباحث إنجليزي أن العلامات والرموز الهيروغليفية المكتوبة داخل الإطار البيضاوي (الخرطوش) هي أسماء الملوك ، ولكنه اخطأ الخصائص الصوتية لهذه الرموز .

وفي عام ١٨٢٢ حقق عالم فرنسي أسمه جان فرنسوا شامبليون ، إنجازاً مفاجئاً لفك رموز الكتابة الهيروغليفية في حجر رشيد ، فبدراسته لموقع أسماء الأعلام وتكرارها في النص الهيروغليفية تمكن من معرفة الأسماء نفسها وتمييزها في النص المصري. بالإضافة إلى ذلك ، ساعدت معرفة شامبليون بالقبطية ، وهي لغة مصرية حديثة ، على تمكينه من التعرف على كثير من الكلمات المصرية القديمة ، في القسم الهيروغليفي من النص فنجح في التوصل إلي بعض قواعد نقش الهيروغليفية ، ثم بحث عما ترجمه إلى القبطية في النص الهيروغليفي للاهتداء إلي الكلمات الهيروغليفية المقابلة لمثيلاتها في القبطية ولكنه وجد صعوبة شديدة لأن النص الهيروغليفي كتب حسب العادة المتبعة بدون فواصل بين الكلمات وبعد تمكنه من حل كثير من الرموز استخدم الأسلوب العكسي ليترجم من الهيروغليفية إلي القبطية ما استطاع تمييزه منها ليعرف معناها ، ولكن هذه الطريقة لها محاذيرها حيث أن الكلمات الهيروغليفية التي دخلت إلي اللغة القبطية عددها قليل جداً بالنسبة لمجمل الكلمات الهيروغليفية وأيضاً بسبب تطور الكلمات القبطية بحيث يصعب معرفة أصولها . لذا فقد استخدم بعد ذلك الاستنباط عن طريق الوصول إلي المعنى من ورود الكلمة في أكثر من سياق. وفي آخر الأمر فك شامبليون رموز النص كاملاً ، وبذلك أمكن الكشف عن كثير من معان اللغة المصرية القديمة.

إلا أنه عام ٢٠٠٤ كشف عالم المصريات عكاشة الدالي أن أول من اكتشف أن الرموز هي عبارة عن رموز صوتية أي حرف هو العالم العربي ابن وحشية وكان ذلك في مؤلفه شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام الذي درس فيه ٨٩ لغة و نظام كتابة قديمة منها الهيروغليفة وقام بتحليل العديد من رموزها الذي وضعه سنة ٨٦١م ، وقد حقق المستشرق النمساوي جوزف همر تلك المخطوطة وترجمتها إلى الإنجليزية ونشرها في لندن عام ١٨٠٦ أي ١٦ عاما قبل اكتشاف شامبليون ، و نشر خبر ذلك في عدة وسائل إعلام غربية. كما أن الباحث السوريّ يحيى مير علم توصل إلى ذات النتيجة وذهب البعض إلى القول أن شامبليون كان قد اطلع تلك هذه المخطوطة إلا انه لا توجد لدينا دلائل تؤكد أو تدحض هذا الادعاء.

كتابات هيروغليفية أخرى

تعود أقدم الأمثلة على الكتابة الهيروغليفية المايانية في أمريكا الوسطى ، إلى نحو عام ٣٠٠م. وكانت حروف هذه الكتابة تتألف من رموز تعتبر تمثيلاً حرفياً للأفكار ، إلا أن بعض الباحثين يعتقدون أن عدداً من الإشارات تمثل أصواتاً ، ولم يتم حتى الآن فك رموز معظم الحروف الهيروغليفية المايانية. وتتناول النصوص التي تمكن الباحثون من فك رموزها أموراً ، تتعلق بالدين ، والفلك ، وتسجيل الوقت.

وكانت الحروف الهيروغليفية الأزتكية تتألف من صور تمثل أفكاراً ، ولها أيضاً قيمة صوتية. لقد دمجت الأزتكية رموز أشياء متعددة ، لتكوين صوت ، أو اسم لشيء ، أو فكرة مجردة ، لم يتم تمثيلها بصورة. وتشبه تلك الرموز الكتابة الحديثة التي تستخدم فيها (الكتابة عن كلمة أو عبارة برسم يذكر المرء بها أو بمقطع منها) واستحدث الحيثيون أيضاً ، نظام كتابة هيروغليفياً نحو عام ١٥٠٠ق.م.

وقد مثلت بعض الرموز الحيثية كلمات بينما مثل الرموز الأخرى مقاطع صوتية.

أخيراً ؛ إن اللغة المصرية القديمة لها شخصيتها المتميزة النابعة من شخصية الإنسان المصري وتراب أرضه ، ولكنها ككل لغة وكان ولابد وأن يحدث التقارب والتفاعل بينها وبين لغات أخرى للشعوب المجاورة ، ولا يعيب هذه اللغة أو تلك أن تأخذ من غيرها ما يمكن أن يثريها ويحقق لها التكامل طالما احتفظت بخصائصها الأصلية.

ولأن اللغة المصرية القديمة تذكر لا بد وأن تذكر معها الكتابة الهيروغليفية كأقدم كتاباتها وأطولها عمراً وأكثرها وضوحاً وخلوداً ، فهي كتابة العلامات الكاملة والمنشآت الضخمة كالمعابد والمقابر.

المراجع والمواقع الإلكترونية العربية

- عبد الحليم نور الدين ، اللغة المصرية القديمة ، الخليج العربي للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٩٨.
- محمد حماد ، تعلم الهيروغليفية :لغة مصر القديمة وأصول الخطوط العالمية.
- موسوعة حضارة العالم / أنشأها أحمد محمد عوف .- الناشر ويكي الكتب .- الجزء الثالث: حضارة عربية (/http://ar.wikibooks.org/wiki)
- http://saidhabeeb.com
- http://www.toutankharton.com
- http://www.moqatel.com

المراجع الانجليزية

- Egyptian Grammar, Being an introduction to the study of Hieroglyphs, By, Alan Gardiner, Third Edition 1957